مراجعة لسيرة مقاتل: عهداً للشهداء

بلال خبيز

لأكتب سيرة، ينبغي أن يكون لديّ ما يثير الآخرين، ويجعلهم يطلبون ذلك، ومن كان في مثل وضعي وحالي، كشاعر صغير، وصحافي ناشىء، لم يحدث انقلابات خطيرة في الشعر والصحافة، أو الأفكار والسياسة، فإن المطلوب من سيرته، اعترافاً، وربما إدانة لتاريخ شخصي، أرجو ألاّ أحشر في زاويته، ما يطلب مني، يشبه اعترافات القتلة والمغتصبين، موضوع دراسة وفحص وتفحّص، وأود لو أني أستطيع تجنّب هذه الكأس. لكن الكلام في الموضوع مطلوب، ومرغوب فيه، لربما، استطاع القارىء، إدانة أحد، أو تحميل المسؤولية لأحد، أو وضعي في موضع الضحية وهذا أرجح في الظن والحسبان. فإن تحلّ الحرب بيننا، وأنا لمّا أبلغ الثالثة عشرة بعد، فإن هذه المصادفة التاريخية، تجعل مني، شخصاً مساقاً إلى مصير محتوم. إذ لا مفر أمامي، من التزام نظام الحرب وقانونها، وصوغ مسارٍ يخصني، يشبه مسار الأبطال الإغريقيين، وهم يبدون عجزهم عن التحكم بمصائرهم وأقدارهم، وينصاعون بكل الشهامة والبطولة اللازمتين.

حرب غير مجدية

لم أكن قد غادرت صباي بعد، حين بدأ كل ما حولي، ينذر بأني لن أغادر الصبا، إلى المراهقة فالشباب، ما لم أتخذ قراراً خطيراً، يشبه قفزة في الهواء، فأستحق الرجولة، وأنالها باعتراف الآخرين. لم يكن ثمة خيارات كثيرة، وأفكر أنه لو تكرر الوضع مرة أخرى، لما استطعت النجاة من هذا

القدر. ولكنت انسقت فيه من دون كبير تردد. على كل حال، كان الموت جميلاً آنذاك، تصاحبه طقوس رائعة، انتحاب الصبايا، وإطلاق الرصاص في الهواء، ومآتم حاشدة وخطب رنانة، كانت تملك آنذاك كل صدقيتها وبراءتها. أما الإصابة بجرح، فكانت وساماً، لا يمكن لأحد أن يرفضه، وكنت على سذاجتي، أربط يدي إلى عنقي، بعد أن ألفّها بورق الرسم الأبيض، وادّعي أني مصاب حرب. هذه الحيلة لم تنطلِ على أحد، لكنها تعكس رغبة شديدة، في نيل هذا الشرف، فما يأتي بعد الإصابة ساحر وجميل، ثمة الاعتناء بالمصاب، الزيارات، والتشاوف على الفتيات، لكن الأهم من ذلك كله، كان تحصيل الاحترام بطلقة واحدة، وإتيانه دفعة واحدة، وهذا لم يكن أمراً نافلاً، فكان يلزم الآخرين أعوام طويلة من الجهد والبذل لتحقيقه. كل هذا رأيته وخبرته، وأنا لم أغادر بعد ملاعب صباي، ولم أفارق أقراني. فهل كنت أدافع عن وطن وأفكار؟

أرجّح أن لا، فلقد كنت أحاول إيجاد مكان لي، في عالم يتغيّر أمام ناظري، ولشدة شقائي فإني كنت أرى التغير هذا في وضوح خادع، فكنت أرقب المقاييس، وأحدس أنني، لا بد فاقد حظوتي ومكانتي، إن لم أقدم على القفز في المجهول، وتسليم النفس لأقدارها، كانت القيم تتغير من حولي، وما عادت الفتيات تأبه لذكاء، أو جمال أو تهذيب. صار بعض المتخلفين في دراستهم أبطالنا الأول، وصرنا نحاول التماهي بهم. هكذا بدأت أفقد نقاط ارتكازي، منذ عام الحرب الأول، فأن أكون تلميذاً مجتهداً، فالأمر لا يثير أحداً، لا الأساتذة ولا الطلاب، لا الرجال ولا النساء، بل وربما كان محطّ سخرية، فما الذي يمكن أن يعنيه الجد والاجتهاد، في وقت انقلاب المعايير، وأنا كنت أشهد هذه الانقلابات عياناً، في أدوار من يكبرونني سناً، ممّن حاولوا اللحاق بالركب بعد تردّد، فتخلّفوا وظلوا متخلفين. أتراني أدافع عن انخراط مبكر في نظام الحرب وطرقها الوعرة؟ لا أشك في ذلك. لكن هذا لا يفيد أني كنت أرى في الحرب خطأ هائلاً، ينبغي تجنّبه، فلم يكن الوطن يعني شيئاً، ولم أكن أعرف ماهيته، وحدوده وأبعاده، وأهميته بالنسبة لأي كان. وحتى الآن، فإنني ما زلت أسأل هذه الأسئلة، ولا أجد أجوبة شافية. التمسّك بالنظام والتزام القوانين، وماذا بعد؟ ثم أليست المساهمة في صنع القوانين، وفرض الأنظمة، فيها ما يغري أياً كان؟ لكن الأسئلة الأعمق، ما تزال شائكة، ولا من يجيب عنها. من نحن؟ علام نجتمع؟ ما الذي تعنيه وحدتنا؟ إلخ... كل ما أعرفه الآن، أن الحرب لم تكن على الصورة التي ظننت، وأن الدور الذي ظننت، أنني مهيأ له، والحلم الذي يمكن تحقيقه، لم يكن ممكناً، فالإنقلاب على النظام، ومجاوزة القانون، تجعلان العلاقات بين الناس، أكثر تعقيداً، فيصير، أي تصرف، مهما صغر شأنه، باعثاً على

الحيرة والقلق. ما أدركناه الآن، يكاد يختصر في كون الحرب غير مجدية، تسطّح الأشياء، والأفكار، فتتساوى فيها الصغائر والكبائر، وتضيع حدود الثواب والعقاب، إلى حد يصير أمر الإقدام على أي فعل، محفوفاً بالمخاطر. لكن هذا لا يكفي لتأسيس اجتماع. فأنا الآن أكثر حيرة من ذي قبل، وأظن أننا في زمن الحرب، كنا نعيش في طور إنجاز نصر، لا يمكن تحقيقه، وحتى لو تحقق تاريخياً، فهو نصر محكوم بإعادة النظر فيه. لكن الاستمرار في الحرب والتظلل بزمنها، كان يؤمّن لنا، نحن اللبنانيين، على اختلاف جبهاتنا، عصباً وعصبية، نفتقدهما في السلم. وهذا ليس دفاعاً عن الحرب، بل مجرّد اعتراض على السلم، وعلى التسليم بمآله الراهن.

في العمق، لم أنتم إلى حزب وأفكار، انتميت إلى منطق الحرب، الذي يصنع لنا أبطالاً، محسوسين وملموسين، ومعروفين. ونحن في أمس الحاجة إليهم لنجعل من مولدهم بين ربوعنا، ومن تاريخهم الذي نؤلف معظمه، حججاً لنا، لبقائنا واتحادنا واجتماعنا. وفي الحرب كان ذلك ممكناً. كان ثمة عهد نقطعه دائماً للشهداء، وثمة طريق مرسومة في دقة، إنها الطريق إلى الموت، وأنا كنت من بين الذين سلكوها، لا رغبة في الموت، بل رغبة في النجاة منه، بطلاً وليس شهيداً.

السيرة الملأى بالثقوب

هذا ما كنت أحاول الوصول إليه، واقتحامه لكن جهودي لم تثمر ثمراً ناضجاً، فلم أنجح في تقريب الآخرين مني، أو في إقناعهم بصلاحيتي، وجدوى انخراطي في حزب ـ أي حزب كان ـ خلال مدة طويلة، واستلزم الأمر، إعداداً جسدياً وسلوكياً، وإعلان مواقف، لمدة زادت على أعوام ثلاثة، فلم يعترف «الرفاق» بجدوى انخراطي في حزب، حتى عام ١٩٧٨، آنذاك أدركت أنني كنت مستعداً للانخراط في أي حزب أو جماعة، والحزب الذي يحوز قصب السبق في هذا المضمار، هو الحزب الذي ينتبه محازبوه إلى بلوغي السن والجسد الملائمين، أما طقوس الاجتماعات السرية، والأفكار التي تناقش، فلم تكن بذي بال بالنسبة لي، فلقد بقيت على الدوام تلميذاً مجتهداً أُحسنُ فهم ما يقال لي، وحفظه ونقله، وتحليله، لكن تلك الطقوس، لم تكن ذات جدوى فيما خصّ الملتحقين بالحزب على يديّ. كان ينبغي أن أمارس حياة علنية صاخبة، من التمرد على الأهل، إلى التصرف كراشد مُعلن، أعلن غرامياتي، ومغامراتي العسكرية منها والعاطفية، فيأتي المعجبون وينضمون إلى الحزب ليسيروا في الطريق التي سرت فيها من قبل، ويحوزون هذا الامتياز، كأن مجرد الانتماء إلى الحزب، يؤدي إلى النتيجة نفسها،

وعملياً، كان الحزب يفترض لكل عضو من أعضائه غير الناجحين و«المقلّدين» سيرة ملأى بثقوب عدم الانضباط، والخوف من الموت، فلا يفترض المريد الجديد، أن الناس أفراد، وكل منهم فيه ما يميزه عن الآخرين، وأنه يستحيل جمعهم في إطار، وإمرار المسطرة عليهم بالعدل والقسطاس، فمن يناسب القياس نجا ومن لم يناسبه القياس سقط من سماء الشجاعة والانضباط. ولم يكن أمر المناقشات الداخلية، وما اصطلح على دعوته بـ«الوعي السياسي» غير ذي جدوى ووظيفة، بل كان «الوعي السياسي» يوظّف في المناقشات شبه العلنية مع أعضاء الأحزاب «الصديقة» وكان من أمر الإفحام، والاتصاف بـ«الوعي السياسي» ما يجعل من سيرة المتحزّب أكثر نصاعة، وأبهى وهجاً، فكنا نتخيّر خصومنا في دقة شديدة، ونختار الأضعف لهزمه في ميادين المناقشة، وكان يسهل علينا، الانتقال من الخلافة الإسلامية الراشدة مثلاً، إلى العصر اليوناني الذهبي، فالحروب الصليبية، فالثورة المظفرة في ظفار، كأن التاريخ طوع بناننا، نلويه كما نشاء، فالمهم أن نربح المناقشة، ونكسب المعجبين، المريدين.

في وضع هذا سمته، كان يبدو أن المتحزّبين هم الأكثر ذكاء وشجاعة وانضباطاً، وفي هذه المباريات المفتوحة آنذاك، كان علينا أن ندافع عن تلك الصفات، ونؤكدها يوماً بعد يوم، وإن حملت الحرب وأحوالها على تصدير صفات وتأخير أخرى، فتصدرت الشجاعة وتأخّر الذكاء و«الوعي» وحافظ الانضباط على موقعه المتوسط بين الصفتين، حين نَحَتْ الحرب نحو مزيد من التفصيل والتدقيق في انتخاب أبنائها واصطفائهم.

نحن أبناء الحرب. لم نعرف غيرها أهلاً، ولم نجد غيرها حضناً يأوينا في وطن يحترق، أليس في هذا التقرير ما يؤلم إلى درجة مفجعة؟ بلى، أنا أشعر بوخز هذا الانتماء وهذا الحضن كل حين، وأعجب من هؤلاء الذين قادونا إلى الحرب، ثم انفضوا عنا، كأننا لم نكن أبناء فراش واحد، أعجب من هذا التنصّل المتواتر من تبعات هذه الحرب، والخروج إلى صورة السلم، والتربع فوق سدتها، وفي «بروازها» المجلوّ، كأنهم، ما كانوا ذات يوم في موقع من جعل الحرب نظام حياة. فيصبحون على التوالي، نقّاداً وشعراء وموسيقيين، ومفكرين، وتجاراً، كأنهم عاشوا في الحرب لحظة طيش، وانصرفوا عنها، كما ينصرف المرء عن نزوة عابرة. أعجب من هؤلاء جميعاً، وأمقتهم أيضاً، لأن أحداً منهم، لا يفكّر سوى في توبته الشخصية. لا أتحدث عن الذين ناضلوا وما يزالون يناضلون، ضد الحرب ومنطقها، ولا يتناسون ولو للحظة، أن الكثير الكثير قد تغيّر في الحرب، فيقرأون ويتحرّون سبل هذا التغيير وطرقه ومقاماته. ولا حتى أولئك الذين ما يزالون على سلاحهم، وإيمانهم، فهؤلاء أعذرهم، وأقدّر فيهم وفاءهم،

لكني لا أسكت عنهم، ولا أشجعهم، وأفعل ما يسعني، لتهفيت دعاويهم وأفكارهم، لكني على الأرجح وبصفة شخصية لا أقبل التوبة. ولست متسامحاً إلى هذا الحدّ.

إمتياز الضحية.

كنت واحداً من الأطفال الذين شبّوا وكبروا في الحرب، وإذ كنت أدرك أني لن أبلغ حداً من الشهرة والسلطة يخوّلني أن أصبح أكثر من مجرم حرب، كما فعل الكثيرون، فإني لم أتجاوز حدودي أبداً، وبقيت ألعب في الحيّز المتاح لي، وهو حيز لم يكن يتعدى التزيّن والتبرّج والتجمّل، علّني أنال إعجاب من هم في رأس الهرم، فأحظى عندهم. لم يكن ثمة طموح أكثر عمقاً من هذا الحد، ولا بد أن يلاحظ المرء اليوم هذه الرسائل الغرامية، التي يطلقها المقاتلون، والشهداء قبل مسيرهم إلى مصيرهم، في الطاعة والعشق للأمناء العامين ورؤساء الأحزاب، والمرشدين والعلماء جميعاً. كانت حالنا آنذاك تشبه أحوال هؤلاء اليوم، وإن كان الأمر يتم، من دون ضجيج وقرع طبول، فكنا نتناقش لساعات طويلة، ذكوراً وإناثاً، رفاقاً ورفيقات، في محاسن الأمين العام، أو نائبه، وننحاز كل واحد منا إلى قائد، وندافع عن صفاته، بل ربما كنا نراه جميلاً أيضاً، ويأخذ البعض منا بتعداد المحاسن، من دون أن يعرف عن صاحب الاسم غير اسمه. كان القادة، رجالنا، نحن النساء المعدودات (ذكوراً وإناثاً) لنكون في حريمه، لا أعرف إن كان ذلك طقساً مدروساً في عناية أم لا؟ إلا أن الدور الذي كنا نلعبه، لم يكن ليتعدّى في حال من الأحوال، نيل الحظوة، وكنا على استعداد تام لبذل كل ما نستطيع لتحقيق ذلك، لم تصنع الحرب منا رجالاً (كما يعرف الرجال على جاري العادة) بل كان امتيازنا الذكوري إلى تراجع، وتراجع مخيف، أما الإناث من بيننا، فكنّ أعسر وضعاً وأدنى مقاماً ومنزلة، وكنا نتراجع عن امتيازاتنا التي تحقّقت لنا بالولادة (كما في كل مجتمع متخلّف) لنصبح أقل قدرة على التحكّم في شؤوننا الخاصة. ولم يطل الأمر كثيراً، حتى كان التراجع قد بلغ بنا الدرجة الصفر، فصارت أمور كالزواج والطلاق، ومعاقرة الخمر، أو حتى النوم، والسكن، واقتناء السيارة، من الأمور التي يختص بها القادة ويفرضونها على المحازبين، من دون أن يشعر الأخيرون بمدى هذه السلطة، وقدرتها على التحكم في رواحهم وغدوّهم، وسائر تصاريف حياتهم. كأن سلطان فوكو الذي يملك السلطة على الحياة والموت، أضاف إلى سلطانه، سلطة على الشؤون الصغيرة والنافلة والتافهة، إلى درجة أن التعلم كان في حد ذاته موضعاً لاختبار هذه السلطة. ولا يظنن أحد أننا كنا ننزعج، من هذا التسلط، بل غالباً ما كنا نتطلبه ونسعى إليه. كأن في أمر تأنيثنا (تأنيثاً

شرقياً) ما يثيرنا إلى درجة فاضحة. وأحسب أن ثمة تصفية إرث قام به كل من غادر في تلك الفترة أو بعدها بقليل، ثمة انتقام للرجولة الضائعة، توالى فصولاً، حتى ليبدو الطلاق بين رفاق الأمس القادة طلاقاً بائناً لا رجعة فيه. من جهتي لم أرد الانتفاض على هذا الدور الذي وضعتني فيه الحرب، اكتشفت أن ثمة ميزات كثيرة يختزنها، أقلها سطوعاً أن المرء يصبح أكثر شكاً بأفكاره، وأقل إفصاحاً، أكثر تردداً في الغالب، ولا ينطق إلا بما أشبعه فكراً وتحليلاً، وأكثرها سطوعاً أن المرء في هذا الموقع، يصبح أكثر فردانية، مزاجية، وأكثر اعتناء بنفسه، بما يؤثثها، ويجعلها بحق نفساً إنسانية، لا شوائب فيها. من هذا الموقع أستطيع أن أرى أفضل بكثير، أستطيع أن أدين القتل وأعلي نبرة الإدانة من دون أن أقترح بديلاً للقتل أو أفكر في اجتراح البديل. كذا أمر الحرب، والصراع على المكاسب، واللهاث خلف مركبة السلطة المسرعة. أستطيع كل هذا من موقع الضحية الذي لم أختره، لكني أسعى من دون شك إلى الموقع الذي أستطيع فيه اختيار جلادي، وهو ما لم أنجح في الوصول إليه بعد.

الأسماء المستعارة

كان اختيار الاسم الحركي واجباً على المنتسب الجديد، وهذا من التقاليد التي تأسّس عليها التنظيم، لأسباب تتعلق بأمن التنظيم، وتضليل رجال السلطة ومخابراتها، إذا ما وقعت وثائق التنظيم بين أيديهم. هذا ما كان من شأن الذين سبقونا إلى التنظيم، والعمل السياسي، يوم كان العمل «السياسي الثوري» سرياً. لكن التقليد استمرّ، وانكشفت أسماء البعض المستعارة، فصرنا نعرف بعض القادة بتلك الأسماء، وكان بعضهم ممّن نعرفهم بسبب صلة ما، كأن يكون من المنطقة التي نعيش فيها، أو ما شابه، ورغم تخلّيه عن الاسم المستعار الذي حمله في حرب السنتين، إلا أننا كنا نصرّ على إلباسه اسمه المستعار مرة أخرى ومناداته به، إمارة على مشاركته في الحرب وحيازته وسام احترامنا، المبالغ فيه على الأغلب. أما المراتب العسكرية، فكانت شغلنا الشاغل، وكنا نجهد لمعرفة القادة الأول الذين تأمروا على آخرين، وأصبحوا قادة بدورهم. وهذا التفتيش المعقّد، كان من علاماتنا الفارقة، التي تجعل المحازب محازباً، يعرف الأسرار.

من جهتنا كنا نختار أسماء مستعارة، ونحرص أن ينادينا الرفاق بها، إذ كان من شأن غلبة الاسم الجديد، وإشهاره علناً، أن يصنع للواحد منا، شهرة ومقاماً عالياً بين الأتراب والرفاق، فانتشار الاسم دليل على ذيوع صيت صاحبه، في قرى ومدن لا يعرفه فيها أهلها، مما يشير بداهة، إلى علو كعب في الأعمال الحربية، وطول مكث على

الجبهات، وخطوط النار. وآنذاك كانت الأسماء الغالبة والشائعة تتّصف ببعدها عن الإيحاء بطائفة ومذهب المحازب، أسماء ابتدعها العقل القومي العربي، فشاعت بثبوت سلطانه، من مثل وسيم، علاء، جمال، سعد، نبيل، بسّام، والأرجح أن هذا الضرب من الأسماء، كان يحمله القادة الأول، في المراتب العليا، وكان اختيارنا لها، مثابة تقليد وإشارة خضوع والتزام. خصوصاً وأن الحرب كانت ما تزال في أطوارها الأولى، ولمّا تتغير الوجوه بعد، وكان لا يزال ثمة حظوة وقيمة لنافخي أبواقها، من الشعراء والمثقفين والكتّاب والسياسيين. وفي جيلي من المحازبين، بدأت أسماء من صنف جديد، تبدأ ظهورها العلني، غيفارا، كاسترو، كارلوس. لكنها لم تعرف شيوعاً وذيوعاً، لكن الأسماء جميعاً كانت تشير إلى إعلان التخلي عن المحيط العائلي والطائفي الذي درج واحدنا فيه، وتدّعي تأسيس اجتماع جديد، وهو اجتماع لحمته السر الذي ينعقد بين المحازبين، والإيمان بالرفاق والتصديق على أقوالهم، في وجه اجتماعات أخرى نشأت بين ظهرانينا، من أعضاء أحزاب حليفة وصديقة. وإذ ينعقد الاجتماع على السرية والسر جميعاً، فإنه يُخفي ادعاء كامناً، بأن ثمة أمراً جليلاً نفعله، سوى التمختر في الساحات، وإعلان الاضرابات في مدارسنا بمناسبة وغير مناسبة، وقدّ المراجل على السلطة المنهوكة ورجالها الحائرين، بمحاولة الادعاء، بأننا نعرف ما لا يعرفه غيرنا، وأن الآخرين، خصوصاً غير المتحزبين منهم، لا يملكون من الحقائق شيئاً، حتى ذيولها، في حين أننا نمسك بها من ناصيتها الأرفع، عبر التبليغات التي تأتينا متواترة من القيادة. لكن المفاجآت، كانت دائماً في المرصاد، فيكتشف الواحد منا فجأة، أن خبر استقالة أحد قياديي تنظيمنا، شائع وتلوكه الألسن، فيما نحن وحدنا أبناء التنظيم، لا نعرف عن الأمر شيئاً، غير التبليغات التي تفيد أن الرفيق القائد، ما زال على إيمانه، وما زال يمارس مهامه كاملة في الصف القيادي. مفاجآت من هذا النوع، كانت دائماً تجعلنا أضعف مما نبدو حقيقة، لكننا سرعان ما نعود نتسلح بالرواية الرسمية، وننسب لها دقة، تجعل الآخرين خارج التنظيم كذبة أو جاهلين.

لم أدر متى زحفت أسماء الحرب إلى صفوفنا، نبتت فجأة كالفطر، وصارت شائعة، بل صار أصحابها، أكثر شهرة منا، نحن أصحاب الأسماء المكررة والتي لا تحمل أي معنى، صار لأسماء: أبو الجماجم، وأبو الموت، وأبو حديد، وقع كقرع الطبول، وصرنا نسمع بأخبارهم، فيما تندثر مآثر آخرين يحملون أسماء تشبه أسماءنا، ولأن أوان التغيير قد فات، ولم يعد يسعنا نحن أصحاب الأسماء المحايدة غير أن نثبت بالكفاية ما يثبته هؤلاء بأسمائهم وحدها. كان ذلك إيذاناً لي، وإشارة، لأقوم بقفزة أخرى، تجعلني

أدخل درب المجد، من باب المعارك. والحق أن التنظيم الذي كنت من عداد أعضائه، كان ما يزال يولي «الوعي السياسي» و«الانضباط الحزبي» بعض قيمة، وإن كان المشهد العام يشير إلى عكس ذلك، فيمجد المحازبين ذوي المآثر في الحرب وفي الجبهات. رغم كل هذا فإن التنظيم لم يتخلَ عن الاجتماع الأسبوعي، وإحلاله منزلة قدسية، تجعل من التخلف عنه انحرافاً، وسلوكاً مشينا، وكانت مادة الاجتماع الأساسية، تستقى من افتتاحية المجلة، أما التثقيف «النظري» وهو كناية عن نقاش وقراءة بعض الأدبيات الماركسية، فغاب تماماً، رغم محاولات خجولة، أنتجت بعد جهد طويل، مناقشات لبعض الكتيبات الدعاوية، كألف باء الشيوعية وتعاليم الماركسية، وفي كل برنامج تثقيفي، كل البيان الشيوعي يدرج في رأس قائمة الكتب المنوي مناقشتها، لكن نقاشه لم يحصل رغم تراكم السنوات.

تغيرت القيم كثيراً، وصار يسعنا أن نرى بأم العين، كيف يصير اختيار القادة العسكريين الجدد، من بين أصحاب الأجساد المتناسقة. والأكثر طولاً بين أقرانهم، ودرجت عادة إطلاق اللحى وتشذيبها والاعتناء باللباس العسكري اعتناء مفرطاً، وكان يسع أيّاً كان أن يلاحظ التفاوت الكبير بين قامات القادة القدامى الضئيلة، وقامات القادة الجدد الممتلئة، والوافرة. كأن الجسد بدأ برأس القيم منذ ذلك الزمن، وتم إحلاله في صخب، في موضع الذي كان يحتله الذكاء والوعي والشجاعة أحياناً.

تغيرت الأسماء والأجساد، ولم يعد للفكر أدنى اعتبار، هذا لا يعني أن الحرب في بداياتها كانت على درجة من الصحة، والضرورة، لكنها كانت كذلك بالنسبة لنا. تغيّر القيم، لم يؤثر كثيراً في نظرتنا إليها، فمن جهة أولى كان القادة هم أنفسهم، أما من غادر منهم، فكانت تلحقه النعوت والصفات التي تفيد انهزامه، وانحرافه إلى آخر ما هنالك من صفات يعرفها القاصي والداني، فكانوا يغادرون أفراداً، والأفراد بحسب منطقنا على خطأ، ومعرضون للخطأ، والضعف، والخوف والانحراف. أما الكتلة، ونحن حديدها ونارها ووقودها، فهي دوماً على حق، لا ينتقص من أحقيتها تلك، تصرفاتنا الفردية التي كنا نجهد لإخفائها عن الآخرين، فكنا نكتم الخوف، والقلق، والتذمر والشكوى، لئلا نكون أفراداً ومنحرفين، ولا نجرؤ على الاعتراف لأي كان بأخطائنا الصغيرة، بما فيها تلك التي كنا نقترفها، ونحن ندير نقاشات نجهل أصولها، فنستشهد بلينين وأنجلز من دون أن نقرأ أيّاً منهما، ولا نعترف لأحد كائناً من كان بأننا لم نقرأ لهؤلاء شيئاً يعتد به، كما كنا نحاذر الاستشهاد بماركس وتنصيبه في موقع الاحتجاج المفحم لأن الرأي الشائع

آنذاك، كان يفيد أن ماركس عسير الفهم على من هم على شاكلتنا وفي مواقعنا الدنيا، والاستشهاد بهذا المفكر، وإقامته حجة، كانا أمرين يثيران سخرية محاورينا، المتأكدين من جهلنا به، لذا كنا نتجنب ماركس، ونكثر من استعمال لينين وأنجلز، أما الكتب التي نجرؤ على استعارتها من رفاقنا لهذين المفكرين، فكانت على الأغلب، كتباً هامشية، لئلا يعرف رفاقنا بجهلنا، ويكشفونه. لم يكن الخوف من الانحراف والفردانية يتخذ من بهلوانياتنا الفكرية مستقراً وسنداً كبيرين، بل كانت هذه البهلوانية محط تسامح إلى حد ما، أما الانحراف فكان يظهر، ما إن نصادق أشخاصاً ينتمون لأحزاب أخرى، أو غير منتمين لأحزاب، ولا نطرح أسماءهم في الاجتماعات كمشاريع حزبيين، أما إذا طرحنا هذه الأسماء، فإن الخلية تنذر واحدنا إلى وقت معلوم، إنجاز النقاش الضروري ومفاتحته بأمر الالتزام، فإما يكون صديقاً، أو ينتسب إلى حلقة أو تقطع كل صلة به. والمشكلة بالنسبة لي كانت تكمن في نقص فادح في عدد الرفيقات، مما يضطرني دائماً لإقامة صداقات نسائية مع رفيقات في التنظيم الأقرب إيديولوجياً، لذا كنت أتجنب الفتحاويات والبعثيات والقوميات، متنكباً أهون الشرور، وأقلها إثارة للعصبية الصغيرة الناشئة. وكان للعلاقة مع الأهل والأقارب شأن مماثل فكان علينا أن لا نستجيب لتوسلات الأهل المطالبة بتجنب المشاركة في المعارك، ولزم الأمر إن نكون قساة إلى الحد الذي لا يطاق. فكلما أوغل واحدنا في الابتعاد عن أهله وإخوته، كلما علا كعبه، واستقرّت مكانته، وكان علينا أن نعالج مشاكلنا مع أهلنا في السر ومن دون ضوضاء، فما أن تصل أخبار اعتراض أهلنا إلى التنظيم حتى يسقط الواحد منا في فخّ الخوف وعدم الحسم، والتردد. ننحر مشاعرنا في السر ولا نبوح بها لأحد، لئلا ننشر غسيلاً وسخاً بين الرفاق. والعلاقة بالأهل، بالنسبة لي كانت من الصعوبة بمكان إلى حد أني لم أستطع إخفاء آثارها عن كل عين، ذلك أن قلاع الأهل وحصونهم، كانت تتهاوى بدءاً بالحلقات الأضعف إلى الحلقات الأقوى، فمن كان والده وجيهاً في قريته، أو متعلماً، أو ميسور الحال، كان يجد صعوبة أكبر بكثير، في ترويضه وتدجينه، ممن كان والده عاملاً، أو فلاحاً بسيطاً، أو أميّاً. ومن حظي السيىء، أن والدي، كان يجمع إلى التعليم المتوسط الوجاهة واليسر، وهذا يعني أن إقناعه، وتحويله من سيد إلى تابع، ومن أب إلى ابن، لا يتم بسهولة. على كل حال، لم يسلّم والدي أسلحته، طوال زمن الحرب، وظل في قرارته يشعر بهذا الغول الزاحف على بيته إلى آخر أيام الحرب. رغم أن العلاقة بيننا شهدت هدنات طويلة سمحت لي ترتيب موقعي في التنظيم، وإنشائه على النحو الذي يليق بي. وهذا التراتب الوجاهي الذي شكّل حصون الأهل، ربما يفسّره التغيّر الذي كان

يطرأ على منابت المقاتلين، في أطوار الحرب المتعاقبة من وجهة أخرى، غير وجهة العلاقة بالمدينة والإقامة فيها التي تناولها وضاح شرارة.

في الجبهة

كانت نار الحرب إذن تأكل القيم الأولى التي نشأت عليها الأحزاب، وهي قيم تختلف عن الفكر الذي أسس للحرب الأهلية من الجهة التي كنت فيها، فالفكر، حتى حين يكون داعياً لإشعال حرب، يظل خفيفاً، ومحتملاً، قبل أن يلوثه الدم ويثقله. هكذا لم تتعرض قيمنا للتغيير، إلا بفعل الحرب واستمرارها، والنفخ في بوقها. وكان ذلك آذناً فيما يخصني إلى التحاقي بالمقاتلين على الجبهات. آنذاك كانت الحرب في ذهني شديدة الخطورة، ومخيفة إلى حد كبير، فكنت كغيري أصدّق كل البطولات والمعارك التي لا تنتهي، والجبهات الساخنة. وكنت أظن الجبهات تشهد حروباً مستمرة، واقتحامات متبادلة وإطلاق نار لا ينتهي. هكذا انطلقت إلى الجبهة، وفي نيتي أن أساهم في الحرب ببعض من وقتي. لكن الجبهات كانت هادئة، وأمضيتُ زمناً طويلاً في الحراسات والكمائن والمراكز المتقدمة، من دون أن أطلق طلقة واحدة. كان زمناً بطيئاً، أقطّعه بلعب الورق والشطرنج وكرة الطاولة، لكن هذه التسالي أسقمتني سريعاً، فانصرفت إلى القراءة، وأرجّح أني أدين لتلك الفترة بمعظم قراءاتي الأولية والابتدائية. فكنت أقرأ لأقتل الضجر، والنهارات اليابسة، والليالي التي لا تنتهي، حيث النوم كثير وعميق. في تلك الأوقات على الأرجح ظهر شعار «موت السياسة» للمرة الأولى في الجرائد، وكنت أشعر بذلك الموت في يومي وليلي، وأنتظر الإنتصار النهائي، لنعود إلى استئناف بدايات جديدة، التي رغم ما فيها من سذاجة ورومنسية، كانت أكثر غنى من تلك الفترة الميتة. وللمفارقة فإن الهزيمة هي ما أحيت فيّ هذا الموات.

على هذه الصورة مرّت سنوات الحرب التي سبقت الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢، حيث لا حرب، وإنما مجرد خنادق ومتاريس، فكرية وميدانية، لا أذكر حرباً ومعارك وإن كنت أذكر برداً وضجراً وألماً في العيون. بين اجتياحين، كانت الحياة أشبه برحلة كشفية طويلة، تعلمت فيها إعداد الطعام، والتعامل مع أناس لا أعرفهم، وإنشاء صداقات، والتزام الأوامر وإصدارها. وفي قرارتي، لم أكن أشعر أني محارب يُعتمد عليه، فلم أختبر شجاعتي في معركة وما تعرضت لأخطار داهمة. وهذا تقدير لمن لم يعرف الحياة بعد. فكنت أظن الحرب اشتباكاً دائماً لا ينتهي، لكن الحرب كما عرفتها وخبرتها، لم تكن المعارك القليلة التي خضناها، ولا العمليات المحدودة، الحرب كانت نظام الحياة

الذي دخلنا في ثقبه الضيّق، وبدأنا نضيقه على أنفسنا إلى درجة الاختناق، وكنت أشعر كلما غادرنا رفيق إلى تصريف شؤون حياته أن الطوق يضيق على أعناقنا، وأننا سرعان ما سنقع فريسة العزلة والوحشة. وعلى العكس من ذلك، كان للشهداء وقع مميّز، في نفوسنا، فكان الشهيد علامة لا تدحض، على جدوى ما نقوم به، فما دام هناك في الطرف الأخر، من يستعد للقتل، وينفذ استعداده، فذلك يعني أن ما نقوم به يستحق أن يدرج في خانة التضحية والبطولة، أو على الأقل يوضع في ميزان الجدوى ونختلف على قيمته. كان الشهداء ضرورة لنا، نحن المحازبين الصغار، وكنا نفرح بتعدادهم، لأن تكاثرهم، يعني أن العصبة التي ننتمي إليها، قدّمت للأهل، والاجتماع، كل غالٍ ونفيس.

الهدنات الطويلة هي التي كانت تقلقنا فعلاً، وأحياناً انعدام الخطر، وزواله. كان الرخاء والسلم مضجرين، وكنا ننتظر استئناف حرب بدأها غيرنا، لكن ذلك لم يأت من الجهة التي كنا ننتظر.

الطرف الآخر، أو العدو، كان يبدو لنا قليل التماسك واللحمة. فالمقاتلون ليسوا سوى مجموعة من المأزومين، كل واحد منهم يعاني أزمته الشخصية الخانقة، مدمنو مخدرات ومجرمون سابقون، أو مجرد قبضايات وزعران، لم نكن ننسبهم إلى مجتمعات وأهل وحبيبات وصديقات، كنا كما يبدو نضن بالاجتماع هناك على الجبهة الأخرى، أن نسلّمه لهؤلاء المقاتلين وقادتهم. فبالنسبة لنا، كان الأهل هناك يرفضون ما يقوم به أولادهم، لكنهم مغلوبون على أمرهم، فثمة قمع مستشر وثمة اعتقالات وأجهزة أمن، هكذا اشتركنا باللحمة مع أهل المقاتلين على الجبهة الأخرى، فنحن كتلٌ لا ثقوب فيها، وما يتساقط منها، فإنما يرشح عن جوانبها المهملة، أما أهلنا ومقاتلو الجبهة الأخرى، فأفراد ولا يمكن لأمر جمعهم في لحمة متماسكة. كأننا كنا نريد لأنفسنا الحقيقة ولجانبنا الحق، شاؤوا أم أبوا ذلك. وقد طال الأمر كثيراً إلى أن بدأنا نكتشف معنى أن يستمر القتال أكثر من عشرة أعوام، وما يزال يجد وقوده في الجهة المقابلة. فلربما، كان ثمة ما يدافعون عنه ويعتبرونه حقاً أو ربما كان الاجتماع هناك على غير ما تصورت مخيلتي الضحلة. كان ذلك في الزمن الذي خرج فيه التنظيم الذي أنتمي إليه من الحرب الأهلية، كفاعل ومؤثر، وآثر قادته تجنب الخوض في الوحل، الذي استسقوا مطره من أقاصي الأرض وأدانيها. وربما لولا هذا الخروج، لما تسنى لي أن أرى هذه الأمور من هذه الزاوية، وذلك ليس لنقص في الذكاء، أو قلة تدبير، بل لأن الجيل الذي جئت منه، لم يعرف غير الحرب نظام حياة وكان في مجمله متعاطياً معها ومع تبعاتها، كان ينقصنا السلم، لنعرف ما كنا نساهم في صنعه، وندرك كم كان خطراً وهائلاً.

في الجهة الأخرى، كان المقاتلون لا يشبهوننا، كنا ننسب إليهم استغراقاً في الدم، وإدماناً على الكحول والمخدرات، وصفات لا إنسانية في الغالب، كانوا يبدون لنا مجرد وحوش أو منحرفين ينبغي الحجر عليهم، وحجزهم وحتى محاكمتهم وقتلهم. أما نحن، فأبناء قرى ولنا أهل وأصدقاء. وكنا نقاتل لنحلو في عيونهم، ونصبح أجمل، وليس لظن أننا ندافع عن وطن نريده كاملاً غير منقوص. في اختصار لم نخرج من مجتمعاتنا الضيقة، وهي ضيقة لأنها في الأساس تستبعد منها مناطق وطوائف برمتها، وكنا نريد منها أن تتقبلنا بأفكارنا وأفعالنا، وما صرنا عليه. وما كنا نريد اقتحام مناطق جديدة، وتصوير أنفسنا بصورة من يريد التأثير في الآخر البعيد على الجهة الأخرى من الحدود.

اليأس المداوي

نحن ضحايا، حين يتعلق الأمر، بنظام الحرب، واضطرارنا للولوغ فيه، أما في ما يتعلق بامتشاق السلاح، وخوض المعارك، فالأمر يغدو مقلوباً ومعكوساً.

في البداية ليس ثمة معارك كما يظن البعض، ليس ثمة سهر وخوف ورعب، الخوف يأتي إلى المدن، يدخل الشقق والبنايات، ويصيب الذاهبين إلى شؤونهم، لكن المقاتلين لا يخافون، ليس لأنهم شجعان وأبطال بل لأنهم مصدر الخوف ومؤلفوه.

ميّزتنا الحرب، نحن المقاتلين مرة حين سمحت لنا بارتفاع المقام، وسهلته مرة، حين تحولنا إلى أسياد نفرض قوانيننا وأمزجتنا على الآخرين. هكذا كان الأمر عشية اجتياح ١٩٨٢، الذي أدخلنا في نفق جديد، كان يبدو الخلاص منه صعباً ومستحيلاً.

في العمليات الحربية الأولى، لم أصدق أن الأوضاع يمكن أن تنقلب رأساً على عقب، فيصير الواحد منبوذاً بعد أن كان سلطاناً، ويغدو مجرد الحديث مع أي منا، مبعث خطر في حد ذاته. يوم ٤ حزيران كنت في صيدا، ومن هناك بدأت حرباً، كانت قد أصبحت أكثر تطوراً، فكان يسعنا آنذاك، أن نقاتل من أمكنة أكثر بعداً من ذي قبل، وربما شاركنا إلى هذا الحد أو ذاك في تدمير المدن والقرى، بنيران مدفعيتنا. لم أعرف على وجه اليقين، لكني لم أشهد خراباً طوال أيام المعارك، إذ كنا ننسحب إلى مواقع خلفية، قبل وصول طلائع الجيش الإسرائيلي، تاركين المدن والقرى تحت قسوة النار التي لا ترحم. لا أقول أنه لم يكن ثمة وجود لمقاتلين، قاتلوا وجهاً لوجه، وصمدوا في لحظات حالكة، فهذا حصل في أَمكنة عدة، لكني وفي ما يخصني، لم أشهد مواجهة مماثلة، إذ أن تحولي من ضابط مشاة إلى ضابط مدفعية ثقيلة، منع عني رؤية الآثار التي تركها

الاجتياح. ولم يمض اليوم الرابع حتى كنا قد وصلنا في انسحابنا إلى البقاع. وكانت تردنا الأخبار عن صمود مقاتلين ومدن وقرى، بعضها مضخم إلى حد لا يصدق وبعضها صحيح. لكن ما لم نهتم له آنذاك، هو عمق الخسائر ومداها، كان الصمود هو ما يعنينا، بغض النظر عن مدى الخراب، وعدد الأرواح المزهقة. حتى أني لم أعرف، ولم أهتم لمعرفة تفاصيل انهيار بناية جاد في صيدا حتى عام ١٩٨٦، حيث انهار البناء على رؤوس العائلات التي كانت تحتمي في ملجئها من القصف. في البقاع، أدركت، ربما حدست، أن الوضع قد تغير إلى درجة مريعة، وأنه ينبغي أن أؤسس حياتي من جديد، فعدت إلى حيث يقيم أهلي، الذين هجّروا من الجنوب إلى البقاع عام ١٩٧٦، من دون أن انتظر موافقة التنظيم، التي لم تكن تهمني آنذاك، إذ كان كل ما بنيناه دُمر تدميراً شاملاً، ويبدو أن الصدفة حددت مسار خياري الجديد، كان الجميع هناك خائفين، ويتجنبونني كمصاب بمرض خطير، وحدهم العملاء من كانوا يجرؤون على مخاطبتي ومحادثتي، وإيصالي أحياناً إلى حيث أنوي الذهاب. بل إن بعضهم ممن كانت تربطني بهم رفقة سلاح في ما مضى، جرب زيارتي. ولم أكن أنوي أن أتحول، كنت راضياً بالهزيمة، ومستعداً لتقبل نتائجها، لكن اجتنابي من قبل البعض، جعل من استئناف عيشي من موقعي الجديد مستحيلاً، فما كان أحد يحدثني إلا ناصحاً، أو معبراً عن استيائه لوجودي في جواره. هكذا بدا أن ثمة طريقاً من طريقين، إما الانجرار وراء السلطة والتعامل مع المخابرات الإسرائيلية، أو اليأس، اليأس الذي أعنيه، هو يأس مطبب ومداوٍ، يأخذ المرء جرعته الصباحية من اليأس، فيقوى على مواجهة الاحتمالات، هكذا عدتُ عنيداً ومشاكساً ومجاهراً بآرائي، وساعدني صلف الإسرائيليين، على إنجاز خطواتي الأولى في طريق اليأس هذه إذ كانوا قد تركوا الأسلحة والألغام المفككة على جانبي الطرق، هكذا لم أفعل سوى إعادة بعضها إلى أمكنته السابقة، وكان ذلك بداية المسار الذي لم أنجُ منه بعد.

نحن نتحدث عن قتل مقصود الآن، ولا أحسب الأمر يسيراً وهيناً، كما يظن البعض، فالقتل لطخة تلحق بالقاتل مدى عمره، وتحتاج دائماً إلى تبرير، إلى دفع غرامة علنية، أو إيفاء دين على رؤوس الأشهاد، أو إلى احتضان ومسامحة، وتحقيق مكاسب عامة، تجيز القتل، وتحوله بطولة وتضحية. والقتل عمل قد يقدم عليه يائس، كحالي آنذاك، إذ كنت أرى فيه استمراراً لمعركة خسرتها. استخداماً لسلاح ما زلت أحمله، قدمه لي الإسرائيليون عملياً، كأنهم كانوا يدعونني لاستئناف المعركة، لم أكن أظن أن أعمالي تلك ستغير شيئاً، أو تقلب موازين، كانت استمراراً لمعركة سابقة، وانتقاماً متأخراً، قبل

الغرق في لجة اليأس، كنت أشعر بقوة، أن أحداً لن يحاسبني على ما أفعله. بمن فيهم الإسرائيليون، فهؤلاء كانوا بالنسبة لي، منذورين للموت، وقتيل زائد أو قتيلان، لن يغيرا في هذا النذر، فلماذا إذن يمكن أن يعاقبوني، على قدرهم وسوء حظهم.

أتحدث الآن عن الفترة التي سبقت، إعلان انطلاقه جبهة المقاومة الوطنية، حيث كنت أشعر بلا مبالاة كاملة، كان كل ما خبرته وعرفته انتهى إلى الأبد، فكنت منقطعاً عن الأخبار، ولا تحركني الحوادث، وحين أيقظني أبي من نومي ذات عصر، وهو شديد الحماسة، ليزف إليّ خبر اغتيال بشير الجميل، لم أفهم سبباً لحماسته، وإذ لاحظ لا مبالاتي الظاهرة، خفت حماسته، وبدا متفاجئاً، رغم أنه كان يحضني على مثل هذه اللامبالاة من قبل.

كنت وحدي، والأصح كنا وحدنا، أربعة أصدقاء، لم يعد أحد منهم غيري حياً، تناثروا وغابوا في غياهب الحرب التي تلت، يائسين ربما، وغير مبالين على الأرجح، وحين نفذنا عملياتنا العسكرية الأولى، كنا كمن يأخذ بثأر قديم، من دون أي إحساس بالندم أو الإثم أو الرهبة والخوف. أذكر أني ذات مرة، كنت قد كلّفت بحراسة بعض المدافع الثقيلة، التي قدمتها للتنظيم دولة عربية، ولأننا لم نكن في التنظيم نحسن استعمالها، وضعناها في موقع بعيد عن كل عين، وكلفت مجموعتي بحراستها، حيث عشنا أشهراً عدة، من دون أن نحادث إنساناً، أو نرى وجهاً. في تلك الغابة النائية عن العمران، كان ثمة مجموعة من الكلاب الشاردة، تنتقل من مكان إلى آخر، وتقترب من موقعنا، ربما بسبب بقايا الطعام التي نتركها على مبعدة من الخيم، تفتق ذهني ذات يوم عن فكرة مرعبة، قررت فجأة قتل واحد من الكلاب. هكذا بدأت أراقب المجموعة لأنتقي ضحيتي، واستقرّ انتقائي على أنثى بيضاء، كثيفة الوبر، ذات عيون حادة الدكنة ولا أذكر سبباً معيناً لانتقائها إلا أنها كانت متوسطة الحجم، ومجهولة الجنس، ولم أكن قد رأيت قبلاً كلباً من جنسها. غرابتها فقط كانت وراء قراري، كأني لم أطق أن أتعرف فيها على نوع جديد من الكلاب، أو كأن مجرد عدم تعرفي على نوعها وجنسها، كان كافياً لحذفها من الوجود الذي تبلغه مداركي. ولم يكن أمر وجودها المادي مأخوذاً في الاعتبار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كنت مسؤول المجموعة وصاحب الأمر فيها، وكان ذلك بالنسبة لي، اختباراً للسلاح الذي نحمله، من دون أن يتسنى لنا استعماله، أبلغت القرار للرفاق، وحين صوبت السلاح، وقفت أمامي تنظر إليّ، منتظرة ما يصدر عني، لم أجرؤ لحظتها على قتلها، ولكني أطلقت الرصاص بعيداً، ليتسنى لها الهرب. نفرت مجموعة الكلاب بعيداً، لكنها ما لبثت أن عادت بعد قليل، فكلفت أحد الرفاق برميها، الذي لم يتردد لحظة

واحدة في إصابتها، عوت عواء ممطوطاً، وسقطت كحجر. لم أجرؤ على النظر إلى جثتها، وفي الليل، تناهشتها الضباع، وحملت جثتها بعيداً في حين أني بدأت أشعر بثقل ما فعلت، وبلا جدواه المفرطة، كأني لحقت بها وهي تهرب من ظلم البشر إلى الغابات، لأقتلها مثبتاً منتهى الظلم، والإصرار عليه. الرفيق الذي أطلق النار، لم يقلق، ولم يرتعش في نومه. ذلك أنه كان ينفذ أمراً، صدر من مسؤوله، وهو غير مسؤول عن تبعاته. هكذا كان الأمر بالنسبة لي أيضاً. لو أن عدواً تسلل إلى حيث نعسكر، لكنت متيقناً، أني أستطيع قتله من دون تردد، لأن أمراً صادراً مسبقاً، يقضي بذلك، ولست أحمل تبعاته.

القرار من مصدر جديد

لم يكن الأمر على هذه الصورة في الأيام التي أعقبت الاجتياح، فلم أكن أنفذ أوامر عليا، كنت أقرر ما أشاء، ولولا اليأس المطبب الذي كان يملأني، لما كنت استطعت أن آتي بما أتيت. كانت الكلبة بنظرتها الكليلة وحدها تردعني عن القتل، لكن قتل إنسانٍ أمرٌ يختلف، ربما يكون أكثر سهولة ويسراً، وربّما يكون أكثر صعوبة. لنتخيّل الجندي الإسرائيلي الذي رأيته ممدّداً على جانب الطريق، كان قبل لحظاتٍ من موته، يؤشر بيده للسيارات العابرة كي تقله إلى مكانٍ ما، لا شك أنه نظر إلى قاتله الذي كان يصوّب مسدسه بين عينيه، وهو يظن الأمر مجرّد مزحة كلمة ستنتهي بعد لحظات، لكن قاتله لم يتردد. هذا الجندي لا أظن أنه أساء شخصياً إلى هؤلاء الذين قتلوه، ولا صلة لهم به طبعاً، وعلى العكس كان يودّ لو يتقرّب منهم. ويتعرف إلى أفكارهم. لكنهم قتلوه، ولا يكفي أن يكون واحداً من أفراد جيش محتل ومعادٍ، لاتخاذ قرار مماثل، فما يحتاجه هؤلاء هو المرجعية والإذن بالقتل.

أريد أن أقول أن القتل، أو محاولة القتل، ليس أمراً، يمكن إتيانه بسهولة حتى ولو كان المقتول عدواً. إذ يلزمنا أن نبرر هذا الفعل على الدوام، أن ننسبه إلى مصلحة عامة مثلاً أو إلى تثبيت اجتماع، وفي باب أولى، ينبغي أن نحتضن مقاتلينا، أن نسامحهم على القسوة التي أبدوها، ونعيد تأهيلهم للانخراط مجدداً في دورة الحياة التي نريد، والتي قاتلوا لحفظها وصيانتها، وهذا لم يكن حالي في الأشهر الأولى من الاجتياح. وما أن اقترح عليّ التنظيم أن أعود إلى صفوفه، حتى وافقت متحمساً. لكن انتمائي هذه المرة، لم يكن يشبه الانتماء القديم، فكنت أكثر حرية في اتخاذ القرار، وأكثر التزاماً بقراري نفسه، لكن الأهم من هذا كله، كان تبدّل الشرعية والحضن، فحين تزايدت العمليات ضد الجيش الإسرائيلي، حولنا المجتمع إلى أبطال، وكنا نستمد قوة قراراتنا وعزمنا في

التنفيذ، من هذا المصدر بالذات، من حماسة الناس، ومن تأييدهم، من الإجماع العام على صواب ما نفعله، لم يعد التنظيم مصدر السلطة والصواب، صار الاجتماع مصدرهما، وصرنا نعرف ماذا يعني هذا الاجتماع. آنذاك، شعرت أنني أنتمي فعلاً إلى حضن أوسع من عصبتنا الصغيرة. وكنت مستعداً للتضحية من أجله، ما دام يقابل تضحيتي تلك، بالاحتضان، والتسامح والتشجيع.

أكتب ما أكتبه الآن، وأخشى أن يرى أحد في ما يقرأه، سبباً لإدانة لا يمكنني احتمال نتائجها، عند ذلك، لا يعود ثمة ملجأ غير اليأس، وحتى اللّه لا يعود منقذاً وحامياً، وإن كنت لا أرجح هذا الاحتمال كثيراً، وأنا أرى بأم العين كيف تسير الأمور نحو تمجيد خالص للقتال، كأن القتال فعل يمكن تمجيده والتفاخر به بمعزل عن الحضن الأوسع، وعن الاتفاق العام عليه. لا يكفي أن نقاتل العدو وينبغي أن يكون القتال، كالكيّ، آخر الدواء، وشراً لا بد منه، لكني أخشى أن يتحول إلى سنّة وقانون، كما يحاول البعض جاهدين. وفي تحوله هذا، لا يأبه لاجتماع واتفاق وتأييد، بل الأرجح أنه لا يأبه لما يصيب هذا الاجتماع من تمزقات تنخر في عظمه ولحمه معاً. أكثر ما ينبغي لنا أن ننشىء وطناً، لأن ثمة من بين أبنائه من قتلوا بشراً لأجل لحمته، وينبغي أكثر أن نحفظ الوطن، لا أن نحفظ الشعار.